

كانت السيدة ريتشيل ليند تسكن حيث ينحدر طريق قرية أفوليا الرئيس نحو الغور الصغير، الذي تحفه الأعشاب الحرجية والعرائش، ويقطعه جدول ينبع من الغابة التي يقع فيها منزل آل كُثبِرت القديم. جدول اشتهر أنه كان في باكورة جريانه جدولاً غنياً متدفقاً في تلك الغابات التي تحتفظ بأسرار المستنقعات والشلالات. لكنه مع الوقت الذي وصل فيه إلى غور ليند تحوّل إلى غدير صغير ساكن ومطواع. إذ حتى الجدول لا يستطيع المرور من أمام بيت السيدة ريتشيل ليند دون أن يأخذ لياقته واحتشامه بعين الاعتبار. ولعله ساعة جريانه هناك شعر بأن السيدة ريتشيل كانت تداوم على الجلوس قرب نافذتها مسلّطة عيناً حادة على كل ما يمرّ أمامها، بدءاً من الجداول والأطفال إلى ما يتجاوزهم، وأنها عند ملاحظتها حدثاً غريباً أو شيئاً في غير موضعه فلن تعرف طعماً للراحة إلّا بعد أن تتحرّى أسباب ومسببات ما يجري. لا شك أن هناك وفرة من الناس في أفوليا وخارجها، ممّن يستطيعون عن طريق إهمالهم لشؤونهم الخاصة، لكن السيدة ريتشيل ليند كانت واحدة من تلك المخلوقات القديرة التي تستطيع تدبّر شؤونها الخاصة وشؤون بقية القوم في وقت واحد. قادرة على إنجاز عملها دائماً، وكانت تشرف على حلقة الخياطة، كما كانت تُعتبر الدعامة الأقوى لجمعية خيرية، كثيراً ما وجدت السيدة ريتشيل متسعة من الوقت لتجلس لساعات أمام نافذة مطبخها تحيك أغشية اللحف القطنية؛ كما كانت ربّات بيوت أفوليا تردد بأصوات يشوبها الهلع، بينما تسلّط في نفس الوقت عيناً ثاقبة على الطريق الرئيسي الذي يشقّ الغور صعوداً نحو الهضبة الحمراء بعد الغور. وبما أن أفوليا كانت تقع في شبه جزيرة صغيرة مثلثة تشرف على خليج سانت لورانس ويحيط الماء جانبين من جوانبها، فإنه كان إلزاماً على أي شخص يغادرها أو يقدم إليها أن يسلك طريق تلك الهضبة، متبوعاً بعينيّ السيدة ريتشيل الناقدتين اللتين لا تغفلان شاردة. جلست السيدة ريتشيل في عصر يوم من أوائل أيام شهر حزيران أمام نافذتها، وقد انسابت أشعة الشمس عبر النافذة دافئة وساطعة، وتألّق بستان الغور الذي يشرف عليه المنزل محتفلاً بعرس براعته ذات البياض المورّد، الرجل المتواضع الذي يدعوه أهالي أفوليا زوج ريتشيل ليند، يبذر بذور موسم اللفت الأخير في حقل التلّة خلف البيدر، وكان من المفترض أن يكون ماثيو كُثبِرت أيضاً يبذر بذوره في حقل الجدول الأحمر الكبير، بعيداً إلى الأعلى عند المرتفعات الخضراء. كانت السيدة ريتشيل تعرف هذا لأنها في الأمسية السابقة سمعته في مخزن ويليام بلير في بلدة كارمودي وهو يخبر بيتر موريسون عن عزمه على بذر بذور اللفت في عصر اليوم التالي، لأن ماثيو كُثبِرت لم يُؤثر عنه تطوعه بالبوح بأية معلومة عن أي شيء طيلة حياته. مع ذلك هاهي ترى ماثيو كُثبِرت، في الساعة الثالثة والنصف من عصر يوم حافل بالعمل، يقود عربته برباطة جأش مجتازاً الغور نحو التلّة، والأهمّ من ذلك أنه كان يضع ياقة بيضاء ويرتدي أحسن بزّة من بزّاته، ممّا يدلّ بجلاء على مغادرته أفوليا، بل إن العربة والفرس البنيّة تبرهنان على أن وجهته تبعد مسافة جديرة بالاعتبار. فإلى أين يذهب ماثيو كُثبِرت ياترى؟ ولماذا هو ذاهب إلى حيث ينوي الذهاب؟ لو كان الأمر يتعلق بأي رجل آخر في أفوليا، لتمكّنت السيدة ريتشيل من وضع الأمور في نصابها بمنتهى الحنق، ولربما تمكّنت من التوصل إلى تكهن يليق بالسؤالين معاً، ممّا يعني أن ما استدعاه لذلك لا بدّ وأن يكون حدثاً طارئاً، فقد كان ماثيو من أكثر الرجال الأحياء خجلاً، وكان ينفر من الاضطراب إلى الذهاب حيث يوجد الغرباء، بل وحتى إلى أي مكان يضطر فيه إلى الكلام، ولم تكن رؤيته متأنقاً بالياقة البيضاء ومعتلياً العربة من المشاهد التي يغلب حدوثها، وما كان بإمكان السيدة ريتشيل مهما أحدثت ذهنها أن تعتز على جواب ما، توصلت المرأة الوجهية إلى قرار. «سوف أقصد المرتفعات الخضراء بعد تناول الشاي وسأعرف من ماريلّا إلى أين ذهب ولماذا،» قالت السيدة ريتشيل لنفسها. «إنّه على وجه العموم لا يذهب إلى البلدة في هذا الوقت من السنة ولا يزور أحداً أبداً، وإذا كان قد نفذ منه بذر اللفت فإنه لن يتكلّف عناء التأنق وقيادة العربة لجلب ما يريد؛ كما أنه لم يكن يقود العربة بسرعة توحى أنه بصدد الذهاب إلى الطبيب. مع ذلك لا بدّ أن أمراً طارئاً قد حدث الليلة الماضية أجبره على الانطلاق اليوم. ولن أعرف دقيقة واحدة من سلام الفكر أو الشعور قبل أن أعرف ما الذي أخذ ماثيو كُثبِرت خارج أفوليا اليوم. انطلقت السيدة ريتشيل نحو المرتفعات الخضراء بعد تناولها الشاي، فالمنزل الكبير الذي يطله البستان العريشي حيث يقطن آل كُثبِرت يبعد بمقدار ما يقارب ربع ميل صعوداً من غور ليند، لكن لا ريب أن الدرب الطويل المؤدي إليه جعله أكثر بعداً. كان والد ماثيو كُثبِرت الذي ورث عنه ابنه حياؤه وصمته، قد رغب عندما أسس ركيزة بيته في الابتعاد عن الناس قدر ما أمكنه، وهكذا شيّد دارة المرتفعات الخضراء عند نهاية حدود أرضه، وما زالت قائمة هناك إلى الآن، لا تكاد تستبينها العين من الطريق الرئيسة التي تستقرّ على طولها جميع منازل أفوليا الأنيسة، ولم تكن السيدة ريتشيل تعتبر الحياة في مكان كذاك المكان حياةً على الإطلاق.» قالت السيدة ريتشيل لنفسها وهي تتبّع الدرب المخدّد المعشوشب المحاط بأجمات الأزهار البرية. «ولا عجب في أن يكون ماثيو وماريلّا غربيي الأطوار قليلاً، نتيجة عيشهما هنا وحدهما، فرفقة الأشجار ليست بتلك الرفقة الأثيرة، ولو كانت كذلك فلاشك أن لديهما ما يكفي منها، أمّا أنا فإني أفضل صحبة

الناس، لا ريب أنهما يبدوان راضيين بحياتهما، رغم اعتقادي أنهما قد اعتادا على هذا الوضع ليس إلا، كما يقول الإيرلنديون، قادر على الاعتماد على أي شيء حتى على حبل المشنقة. بهذه الأفكار تجاوزت السيدة ريتشيل الدرب المخدّد إلى فناء داره المرتفعات الخضراء الخلفي، كان الفناء يميّز بالخضرة والنظافة والترتيب، تصطف على أحد جانبيه أشجار الصفصاف المهيبه، وتصطف على جانبه الآخر أشجار الحور المتشامخة. ما كان يمكن لمح عود شارّد أو حجر فيه، وإلا لرأته السيدة ريتشيل التي تظن فيما بينها وبين نفسها أن ماريلا كُتّيرت تواظب على كنس ذلك الفناء كلما كنست بيتها، حتى ليستطيع المرء تناول وجبة من على الأرض مباشرة، دون أن يتلوّث ذلك الطعام بأدنى ذرة غبار يمكن أن يُضرب بها المثل. نقرت السيدة ريتشيل على باب المطبخ بكياسه، كان مطبخ المرتفعات الخضراء أشبه بغرفة مبهجة، أو بالأحرى كان يمكن أن يكون مطبخاً مبهجاً لولم يكن مزعجاً بنظافته التي أضفت عليه مظهرًا يشبه مظهر ردهة استقبال مهجورة. كانت نوافذه تُشرف على الشرق والغرب؛ وكان العباب اللطيف لأشعة شمس حزيران ينساب من النافذة الغربية المُطلّة على الفناء الخلفي، أما النافذة الشرقية التي تتيح للناظر رؤية أزهار الكرز البيضاء وأشجار البتولا المتمايلة الغضة قرب الجدول عند الغور، فقد أشرفت على الخضرة التي اصطبغت بها الكروم المتشابكة. عند هذه النافذة كانت تجلس ماريلا إن هي جلست، لأنها لم تكن تثق بأشعة الشمس أبداً، مبالغاً في التراقص في عالم يجب أخذه على محمل الجد، وهناك جلست في ذلك الوقت تحيك، تمكّنت السيدة ريتشيل قبل أن تغلق الباب خلفها بلباقة، من تدوين ملاحظة ذهنية بجميع ما رأتها على تلك الطاولة، وهذا يعني أن ماريلا تتوقع حضور زائر مع ماثيو لتناول الشاي؛ لكن الأطباق كانت أطباق الاستعمال اليومي ولا يوجد على الطاولة سوى مربّى التفاح البري ونوع واحد من الكعك، ممّا يعني أن الرفقة المتوقعة ليست بالرفقة المهمة. ماذا عن ياقة ماثيو البيضاء والفرس البنية؟ كل هذه العلامات جعلت السيدة ريتشيل مذهولة من ذلك الغموض الفريد الذي عمّ أجواء المرتفعات الخضراء الخالية من أي ألغاز. «أليست هذه الأمسية أمسية جميلة حقاً؟ ألا تتفضلين بالجلوس؟ كيف حال جميع أنسبائك؟» شيء ما من تلك الأشياء التي تفتقر إلى أي تعريف آخر يوضحها، لا يمكن أن يوصف هنا إلا بأنه كان نوعاً من الصداقة التي تربط بين ماريلا وكُتّيرت والسيدة ريتشيل، صداقة كانت دائماً موجودة بينهما، رغم تباينهما أورياً بسبب هذا التباين. كانت ماريلا امرأة طويلة نحيلة، تتخلل مسحات الشيب شعرها الغامق الذي اعتادت على ضمّه عند مؤخرة رأسها وتثبيته بدبوسين للشعر مغروزين فيه بإحكام، كانت تبدو كأنها امرأة محدودة الآفاق متبلّدة المشاعر، وتكاد تكون كذلك فعلاً لولا ذلك التعبير المبهم حول قسمات فمها، الذي ربّما لو كان أكثر وضوحاً لأفصح عن امتلاكها لروح مرحة. «لكنني خشيت ألا تكوني أنت على ما يرام، وذلك عندما رأيت ماثيو مغادراً اليوم، أفصح تقلّص شفّتي ماريلا عن فهمها لسبب زيارة السيدة ريتشيل والتي كانت تتوقعها، لأنها كانت واثقة بأن رؤية ماثيو وهو يرتحل من غير سابق تفسير، ستكون أمراً عظيماً يفوق طاقة احتمال جارتها الفضولية.» أجابت ماريلا. «لقد ذهب ماثيو إلى بلدة برايت ريفر، فقد عزمنا على تبني صبيّ صغير من ملجأ للأيتام في نوفا سكوتيا، وهو قادم بالقطار الليلة. لوقالت ماريلا إن ماثيو ذهب إلى بلدة برايت ريفر لياقي حيوان كنفارو من أستراليا فإن دهشة السيدة ريتشيل لما كانت أعظم، فقد أبكمها النبأ كلية لخمس ثوان، ورغم أنها لم تشكّ أبداً في أن ماريلا كانت تسخر منها إلا إنها اضطرت إلى افتراض ذلك تقريباً.» قالت ماريلا، صبي! ماريلا وماثيو كُتّيرت من بين جميع الناس يتبنيان صبيّاً! ومن ملجأ للأيتام! عجباً، ما الذي أدخل هذه الفكرة إلى رأسك، «سألته السيدة ريتشيل باستهجان، «لقد فكّرنا بهذا الموضوع لفترة من الوقت، طيلة فصل الشتاء في الحقيقة، «ردّت ماريلا «وحدث أن كانت السيدة أليكسندر سبنسر هنا قبل يوم من عيد الميلاد، وأخبرتنا عن عزمها على تبني فتاة صغيرة من أحد ملاجئ مدينة هوبتاون في الربيع، وذلك بعد أن زارت السيدة سبنسر ابنة عمها التي تعيش هناك واطّلت على كل شيء، بالإضافة إلى أن قلبه صار يرهقه كثيراً، وأنت تعرفين مدى صعوبة استئجار من يستطيع مساعدته، فالمرء لا يجد إلا أولئك الصبية الفرنسيون الحمقى الذين لم يكتمل نموهم، ولكنني أريد شخصاً أعلمه وفق ما أريد، لذلك قلت له: أحضري صبيّاً من المواليد المحليين على الأقل. قررنا سؤال السيدة سبنسر لاختار لنا صبيّاً عندما تذهب إلى الميتم لتحضر طفلتها الصغيرة، وقد سمعنا في الأسبوع الماضي أنها على نيّة الذهاب؛ فقد ارتأينا أن هذا العمر هو الأفضل: كبير بما فيه الكفاية ليكون ذا نفع في أداء الأعمال الروتينية بإتقان، وصغير بما فيه الكفاية لتتم تربيته بأسلوب لائق، ونحن عازمان على أن نوَقِّله بيتاً طيباً وتعليماً جيّداً، وقد وصلتنا اليوم برقية من السيدة أليكسندر سبنسر، جلبها ساعي البريد من المحطة، وتنصّ على أنهم سيحضرون على متن قطار الساعة الخامسة والنصف الليلة، وهكذا ذهب ماثيو إلى برايت ريفر ليقابل الصبي، فالسيدة سبنسر سوف توصله إلى هناك، ثم ستتابع طريقها بعد ذلك إلى محطة وايت.» . لطالما فاخرت السيدة ريتشيل بنفسها لأنها ما تحرّجت أبداً عن البوح بما يجول في خلدها، بكل صراحة أقول لك إنك

على وشك ارتكاب خطأ جسيم، ولا عن أي طبع سيسفر فيما بعد، ولم كل هذا العناء؟ في الأسبوع الماضي فقط قرأت في الجريدة كيف أن صبيًا، ربياه رجل وزوجه في غرب الجزيرة من ملجأ للأيتام، قام بإشعال النار في المنزل ليلاً. أشعلها عامداً ياماريلا. وكاد الزوجان يحترقان في سريريهما، بل وأعرف قضية أخرى عن صبي اعتاد على مصرّ البيض النقي، ولم يفلح أهله في ردعه ليكفّ عن هذه العادة، ولو سألتني النصح فيما يختصّ بهذا الموضوع. الأمر الذي لم تفعله ياماريلا. لطلبت منك بدافع من الخوف عليك، ألا تُقدمي على هذا التصرف مهما كلف الأمر. استمرّت ماريلا تحيك مابيدها بهدوء، دون أن يبدو عليها الانزعاج أو الارتباك من ذلك الاستفزاز المبطن. «لا أنكر أن هناك مغزى فيما تقولينه ياريتشيل، فقد سبق وأن عانيت أنا نفسي من بعض الشكوك، إنّه من النادر جداً أن يصمّم ماثيو على أمر ما، وعندما يفعل أشعر دائماً أن واجبي يقتضي مني التنازل، أمّا بالنسبة إلى المخاطرة، فإن هناك مخاطرة في أي شيء يمكن أن يقوم به المرء في هذا العالم، بل إن المجازفات تتعدى هذا إلى الأطفال الذين ينجبهم الناس من صلبهم؛ أمل أن يسفر الأمر على خير،» قالت السيدة ريتشيل بلهجة نمت بوضوح عن شكوكها الجمة. «لكن لا تقولي ذات يوم إنني لم أحذرك إذا أحرقت الصبي المرتفعات الخضراء أو دسّ لكم سمّ الزرنخ في البئر، إذ سبق وسمعت عن قضية جرت في بلدة نيوبرنسويك حيث ارتكب هذه الجريمة طفل من ملجأ للأيتام، وكانت النتيجة أن ماتت جميع العائلة بعد عذاب رهيب،» أجابت ماريلا، كما لو أن دسّ السم في الآبار كان عملاً أنثوياً خالصاً، ولا يمكن أن يكون مدعاة للقلق إذا تعلّق الأمر بصبي. «إنني لا يمكن أن أتخيّل ولو مجرد خيال إمكانية رعايتي لفتاة، وكم تدهشني السيدة أليكسندر سينسر لقيامها بذلك، ولكن بالنسبة إليها وفي حال راققتها الفكرة، فإنها لن تتقاعس عن رعاية ملجأ أيتام بأكمله. وخمّنت بأنّ هناك ساعتين كاملتين على أقل تقدير قبل أن يحين موعد قدومه، قررت أن تغادر وتسلّك الطريق المؤدية إلى منزل آل روبرت بيل لتطلّعهم على الأخبار، التي ستكون حتماً حدثاً مثيراً فريداً، ولا شيء يضاهي ولع السيدة ريتشيل بإشاعة الأخبار المثيرة، وهكذا تحاملت على نفسها وغادرت،» هتفت السيدة ريتشيل عندما اختلت بنفسها في طريق عودتها. أرثي لذلك الصغير. إن ماثيو وماريلا لا يعرفان شيئاً عن الأطفال، يبدو وجود طفل في المرتفعات الخضراء شيئاً خارقاً للطبيعة، إذ لم يسبق أن قطنها طفل أبداً، هكذا أفضت السيدة ريتشيل لأجمات الأزهار حولها بما كان يعتلج في أعماق قلبها